المحاضرة الثالثة

علم الطب والصيدلة وعلم الكيمياء في الحضارة الإسلامية

أولاً . علم الطب والصيدلة:

يذهب بعض الكتاب من العرب والمستشرقين إلى أن العرب لم يكونوا غير نقلة مهرة في جميع العلوم منها العلوم الطبية والصيدلة التي لم يعرفوا منها إلا جانبها النظري، وهذا خطأ وتحامل لأن العرب كانوا مبدعين ومخترعين أكثر منهم نقلة في كثير من العلوم ، وإذا كانت معظم الإشارات تتحدث عن الطب ولا تذكر شيئا عن الصيدلة فذلك راجع في تقديرنا إلى أن من كتبوا كانوا يركزون على تاريخ العلوم الطبية وإلا فإنه لم يكن لدى القدماء من تخصص في العلوم الطبية ولم يتخصص معها في العلوم الصيدلية ، لأن الصيدلة كانت مرتبطة بالطب وكان معظم الأطباء صيادلة.

عرف العرب الطب بأنه " حفظ الصحة موجودة، وردها مفقودة " ولقد اشترط العرب على محترف المهنة الطبية أن يكون عالما ملما بعلم وظائف الأعضاء خبيرا بالنبض وتبدل البول ، محيطا بجميع العلوم التي لها صلة بالطب ، والدليل على عنايتهم بالتشريح أن يوحنا بن ماسوية كان يشرح جثث القرود في قاعة تشريح خاصة بناها له المعتصم على نهر دجلة ، وكان يختار التشريح على القردة لأنها أكثر الحيوانات شبها بالإنسان، وقد اهتم العرب بنقل كتب التشريح اليونانية إلى لغتهم، ومن مؤلفاتهم فيه كتاب ابن النفيس "مكتشف الدورة الدموية" المسمى شرح تشريح القانون وكان العرب لا يسمحون للطبيب بممارسة الطب إلا أذا اجتاز فحصا صعبا ، فإذا نجح يسقم قسم أبقراط في أن يكون مخلصا لمهنته أمينا على أسرار مرضاه، وأقبل العرب على الاختصاص في الطب ، إذ عرفوا طب العيون والعظام والجراحة ، وكل يعمل في مجال اختصاصه.

ويجب أن تجتمع في الطبيب المسلم سبع خصال هي:

– أن يكون تام الخلق، صحيح الأعضاء، حسن الذكاء.

– أن يكون حسن الملبس طيب الرائحة نظيف البدن.

– أن يكون كتوما لأسرار مرضاه.

- أن تكون رغبته في إبراء المرض أكثر من رغبته في الأجرة.

- أن يكون حريصا على التعلم.

- أن يكون سليم القلب عفيف النظر صادق اللهجة.

- أن يكون مأمونا ثقة على الأرواح، لا يصف دواء قاتلا ولا يعلمه، ولا دواء يسقط الأجنة.

وعرف العرب البيمارستان (المستشفيات)، وكان الطلاب يتلقون علمهم على المنهجين النظري في المدارس والعملي في المستشفيات، حيث كانوا يجتمعون حول رئيس الأطباء وهو يفحص المرضى ويدونون ملاحظاتهم.

ومن أشهر الأطباء المسلمين – أبوبكر الرازي – الذي تولى بيمارستان الري ثم المقتدري في بغداد وقد ألف كتاب " الحاوي" وتكلم فيه عن أمراض الرأس والعيون والأنف والأسنان ، كما ألف رسالة في الحصبة والجدري وهو أول من فرق بينهما ، وأشار إلى انتقالهما بالعدوى، وأكد الرازي ضرورة فحص نبض القلب والتنفس والبراز ، كما أنه برع في الجراحة.

أيضا ابن سينا الذي برع في الطب وله كتاب " القانون" وهو كتاب ضخم شمل معارف سابقيه ومعاصريه في الطب منسقة ومصنفة وظل هذا الكتاب يدرس في الجامعات الأوروبية حتى نهاية القرن السابع عشر.

درس ابن سينا النبض وبيّن أثر العوامل النفسية والقلق في اختلاف النبض ، كما وصف حالة الأمراض العصبية ، واحتقان الدماغ والتهاب السحايا والشلل وانتقال الأمراض التناسلية بالوراثة.

وهناك أطباء آخرون مشهورون مثل ؛ ابن زهر الأندلسي وابن النفيس والزهراوي، وقد أفردت هونكة الكتاب الرابع في موسوعتها لبحث الطب العربي الإسلامي تحت عنوان الأيدي الشافية ولقد اختارت الرازي شيخ أطباء العرب دون منازع فقالت : قبل عام كان لكلية الطب الباريسية أصغر مكتبة في العالم لا تحتوي إلا على مؤلف واحد وهذا العربي كبير اضطر لويس الحادي عشر ملك فرنسا إلى دفع اثني عشر ماركا من الفضة و مئة تالر من الذهب الخالص لقاء استعارته رغبة منه في أن ينسخ له أطباؤه نسخة منه يرجعون إليها إذا ما هدد صحته عرض أو صحة عائلته وظل هذا المرجع الأساس في أوروبا لمدة تزيد عن الأربعمائة سنة بعد ذلك ظهر عالم عربي قدير هو الرازي و كان طبيبا يتمتع باقتناع داخلي بقدسية رسالته في المجتمع شعر بالمسؤولية تجاه طبقة الأطباء و رأى في الشعوذة وتجار الطب مضارا وتدنيسا للرسالة المقدسة فحمل عليهم حملة شعواء مما أدى إلى ازدياد الصرامة في

تعليم النشء الجديد ثم أدخلت الامتحانات بعد ست سنوات من موته و من مآثر الرازي الطبية العلمية قوله بوجوب إيلاء الاهتمام بالمراقبة السريرية وبالمعالجة بالأغذية دون الأدوية وفي شخصية الرازي الطبيب تتجسد كل ما امتاز به الطب العربي وما حققه من فتوحات علمية باهرة فهو الطبيب العملي الذي يعطي المراقبة السريرية أهميتها وحقها وهو المراقب المفكر و الباحث الكيميائي المستقل و المجرب الناجح وهو أخيرا المنهجي في عمله الذي أضفى على الطب في عصره نظاما رائعا ووضوحا يثير الإعجاب.

ثانياً . الصيدلة:

عرف العرب أسرار التداوي بالعقاقير الطبية من نباتية وحيوانية ومعدنية ، وأدخلوا في الطب استعمال السنامكي والصندل والمسك وجوز القيء والتمر هندي والحنظل وجوزة الطيب والقرفة ، وهم الذين اخترعوا الأشربة والكحول والمستحلبات والخلاصات العطرية ووضعوا كتبا عديدة منها كتاب"الأدوية المفردة " للغافقي ، وكتاب "الدرر الساطعة في الأدوية القاطعة" لمحمد بن ابراهيم، واشتهر موسى ابن العازار (طبيب المعز لدين الله الفاطمي) بتركيب المعاجين والأدوية ، وهو مؤلف "شراب الأصول في أمراض الأمعاء والنساء والكلى والمثانة".

وقد أدخل العرب في الصيدلة تغليف الحبوب ، وبرعوا في إيجاد أدوية معينة على الحمل أو مانعة للحمل ، وذكروا الحقن والحمولات والمسوحات والضمادات ، ووصفوا أقراصا تقطع رائحة العرق من تحت الإبط وتطيب البدن، وركبوا أدوية تنفع أصحاب الأفرجة الحادة ، وتطيب رائحة الفم والنكهة وتزيل البخر.

وتقول هونكة مبينة فضل العرب في مجال الطب والصيدلة "إن كل مستشفى مع ما فيه من ترتيبات ومختبر ، وكل صيدلية ومستودع أدوية في أيمنا هذه إنما هي في حقيقة الأمر نصب تذكارية للعبقرية العربية".

ولعل من أبرز مآثر العرب الصيدلانية الطبية الكيميائية بخاصة إدخالهم نظام " الحسبة ومراقبة الأدوية" ، إذ أن بعض الصيادلة لم يكونوا مخلصين في أعمالهم فكان قسم منهم لا يكتفي بالغش بل كانوا من الاستهتار بدرجة أنهم يدعون أن لديهم جميع أصناف الأدوية ويعطون لمن طلب منهم أي دواء آخر فأمر المأمون بامتحان أمانة الصيادلة ثم أمر المعتصم أن يمنح الصيدلي الذي ثبتت أمانته شهادة تجيز له العمل ، ثم أدخلت الصيدلة تحت مراقبة الحسبة، وانتقل نظام الحسبة إلى أوروبا ، ولا تزال كلمة محتسب تستعمل في اللغة الاسبانية حتى وقتنا الحاضر.

ثالثاً. علم الكيمياء:

الكيمياء علم حقيقي ولده العرب من السيمياء الخرافية التي اختلطت بالسحر وآرائه الباطلة ومن ذلك تحويل المعادن وإظهار النحاس أو غيره بمظهر الذهب وإظهار القصدير بمظهر الفضة ، ويعتقد أن الكيمياء مشتقة من الفعل كمي أو اختفى واستتر ، ووجه التسمية ظاهر لأن الكيمياء القديمة من الصناعات السرية ، وكان العاملون بهذه الصناعة يخفون تعاليمها ويتسترون في اختبارها.

الأسباب التي أدت إلى اشتغال العرب بالكيمياء رغبتهم في تحويل المعادن الرخيصة إلى ذهب ، ثم محاولتهم اكتشاف الأكسير الأعلى أو ما يدعى بحجر الفلاسفة لإعادة الشباب وإطالة العمر ، وبعد خالد بن يزيد بن معاوية أول من أدخل علم الكيمياء إلى العربية حتى أنه لقب حكيم آل مروان ، واستخدم عددا من الأشخاص لترجمة كتب الكيمياء من اليونانية والقبطية والسريانية إلى العربية، ويروي أن الإمام جعفر الصادق كان تام للإلمام بعلم الكيمياء وعنه أخذ جابر بن حيان دراسته الأولية، ودون جابر الكيمياء في سبعين رسالة ربطها بأصول العلم، ونبذ من مذاهب المتقدمين ما لم يؤيده التحقيق في مجرباته ، وتنقسم هذه الصناعة إلى قسمين هما: القوة النفسية وهي السيمياء، القوة العلمية وهي الكيمياء ، وقد وضع جابر القواعد لعلم الكيمياء على منهاج لم يشركه فيه أحد ، ولا قدر على مثلها علماء اليونان حتى صار علم الكيمياء يسمى "صفة جابر " أو " علم جابر".

ومن اكتشافاته التقطير والحوامض القوية وترشيح السوائل وتصفيتها وهو مكتشف حجر جهنم (نترات الفضة) وطريقة تحميض الذهب والفضة ، وهو أول من وصف المعادن الذائعة وصفا مدققا وتكلم عن ماء الفضة والماء الملكي ، ويعزي إلى جابر إتباع المنهج العلمي القائم على التجربة ، لقد كانت وجهات نظره واضحة ومتقنة لأنها مبنية على أسس سليمة راسخة ويقول جابر في أحد تحلياته "يجب على المشتغل بالكيمياء أن يعرف السبب في إجراء كل عملية وأن يفهم التعليمات جيدا ، لأن لكل صنعة أساليبها الفنية، كما يجب عليه ألا يحاول عمل شيء مستحيل أو عديم النفع، واقتف أثر الطبيعة فيما تريده من كل شيء فاعتمد عليه، فعليك يا بني بالتجربة لتحصل على المعرفة لأن من لا يعمل ولا يجري التجارب لا يصل إلى أدنى مراتب الإتقان".

ويمكن تلخيص ما قدمه العرب في الكيمياء بما يأتي:

- أخذ العرب علم الكيمياء عن اليونان والأقباط في الوقت الذي كاد أن يدرس في هذا العلم أي إن الفضل للعرب في عدم انقراض هذا العلم.

- ظهر العرب هذا العلم من الخرافات والحيل التي كادت تقضي عليه.

- اكتشف العرب الحوامض المعدنية التي كان لها الفضل في تقديم الكيمياء

- صنف العرب العقاقير وطهروها والعالم مدين لهم بهذا

- حسن العرب العمليات والآلات الكيميائية واكتشفوا كثيرا من المواد

- استخدم العرب الكيمياء في الطب والصناعة

- تعلم الغربيون الكيمياء من العرب وغيرها من العلوم الطبيعية التي كانت أساس مدنيتهم المعاصرة

بعض المراجع :

- أحمد حامد المجالدي ، هايل خليفة الدهيسات : الحضارة العربية الإسلامية أسسها ومنجزاتها، ط1، كنوز المعرفة، الأردن، 2012.

- فاضل محمد الحسيني : آفاق الحضارة العربية الإسلامية ، ط 1 ، دار الشروق للنشر والتوزيع ، الأردن ، 2006.

- الربعي بن سلامة : الحضارة العربية الإسلامية ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر، 2009.

- عاطف علي: الحضارة العربية الإسلامية ودورها في تكوين الحضارة الأوروبية، ط1، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، لبنان، 2009.

- سلامة صالح النعيمات ، وآخرون ، الحضارة العربية الإسلامية ، القاهرة، مصر،2008.

- شايف عكاشة، الحضارة العربية الإسلامية بين التطور والتخلف ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر 1994.

- ماهر عبد القادر محمد علي، مناهج العلوم عند المسلمين قديما وحديثا، دار أورسال، مصر 2005.